

الشؤون الاجتماعية في الأزمان

لحضرة صاحب الغزة الأستاذ حسين رمزي بك

مدير إدارة الخدمة الاجتماعية بوزارة الشؤون الاجتماعية

للتضامن الإنساني أثر كبير في ترتيب الشؤون الاجتماعية، وقد تزايد مظهره بين الأفراد والجماعات والطبقات والأمم على مر الأجيال حتى بلغ في العصر الحاضر مرتبة راقية ، إذ انتشرت طرق المواصلات وكثرت العلاقات المادية والأدبية والفكرية الروحية في سبيل التقارب والتعارف الإنساني .

يوجد التضامن بين الأفراد نوعاً من حياة مشتركة تتوحد فيها ميول ومصالح ومجتهودات الخير المتضامنين . والتضامن قوة جديدة تشق لنفسها الطريق في الحياة ، وتذلل للجماعة كثيراً من العقبات التي قد يصجز الأفراد عن التغلب عليها ، فهي سلاح قوى في الخير والشر يستعين به الأفراد على الضال في الحياة .

ولقد أصبح اندماج الفرد في جماعة أو جماعات صفة من صفات المدنية الحديثة . فالأمة الراقية إنما تتألف من وحدات اجتماعية أكثر مما تتألف من أفراد . وإن الفرد ليعجز عن الحركة المشعورة بوجه عام إن لم يكن مندمجاً في وحدة من هذه الوحدات . ومن أغفل هذه الحقيقة وجرّد نفسه من سلاحها ، تحتم عليه مواجهة الحياة منفرداً إزاء قوى منظمة تألف وتجانس بعضها مع بعض . سل المسائي والباخر والصانع والمخول والعامل ، بل سل الكاتب والشاعر والفني وغيرهم عن تأثير هذه الحقيقة في أعمالهم لتعلم مبلغ قوتها في ترتيب شؤوننا الخاصة والعامة . وإذا كان الرق الإنساني بين وقدر حقوق الإنسان لا سيما في ضوء المدنية الحديثة ، فإن هذا الرق قضى على الأفراد بالاندماج في وحدات اجتماعية تسهر على تأمين الحقوق وتمهيد الطريق للحصول عليها . إن هذه الوحدات تطالب في الحياة باحقوق فالسيارة ، كما كانت تفعل الأسر والعصبيات في القرون الوسطى عند طلب القوة والجاه . على أن هذه الوحدات تميزت بكثرة انتشارها ومرورتها وسهولة اندماج بعضها في بعض وهو الأمر الذي أذى في هذه المدنية الحديثة أني تألف الوحدات المتجانسة وانقسام الجميع إلى فريقين أساسيين متنازعين : الفقراء والأغنياء والعمال والمهولون ، واختل التوازن في بعض الدول بين الطبقات واشتد النزاع بدرجات وأشكال مختلفة بين الفريقين فظهرت آثاره المؤلمة بمظهر الثورات والحروب . وبهذا تبين لنا أن كل مدنية تحمل معها قسطاً من الخير تستقيم به أمورها ، وقسطاً من الشر فيها حلاكها .

إن أعظم أنواع التضامن للخير هو التضامن القومي ، حيث تتوحد جميع قوات الأمة لتسمو بالنصالح العام فوق مصالح ومطامع الأفراد والجماعات بواسطة نظام حكم عادل قابل

للتطور والرقى ، يشعر الجميع باحترامه وهيئته وقوته وحيه ، ويرتب الصفوف ويوجد التوازن بين أجزاء الأمة ، و يفسح مجال العمل والنشاط لكل جزء ليقوم بعمله المفيد له وللصالح العام خير قيام . أما التضامن القومى الذى يؤدى الى شطر الأمة الى فريقيين متنازعين على مبادئ الملكية والتوزيع والاستهلاك وما يرتبط بها من مشاكل العمل والبطالة وساعات العمل والأجور وغيرها من مسائل ينبت الشرح حولها وتنتشر بسببها الكراهية بين الطبقات والهيئات وتتمو روح التجمهر والتحزب على حساب الصالح العام ، فانه تضامن يعمل على قتل نفسه بنفسه . والتضامن يقوم فى الأصل على مصالح ، فهو مرتبط بالأناثية . على أن هذه الأناثية تنمو وتصبح فى كثير من الناس شعورا مهذبا ومظهرا وجدانيا راقيا ، إذ التهذيب يقيدها ويكبح جماحها ويقهرها ويسيرها فى طريق الاعتدال . ولهذا فان الناس مراتب ودرجات متفاوتة فى الشعور بالتضامن ، شرهم من ترقى عقله وتعلم ولكن أنانيته بقيت وغرائزه على حالتها الطبيعية أو المعجية . والهيئات والجماعات والأمم كذلك مراتب فى الشعور بالتضامن . ويذكرنى هذا بقصة همجى أسر فى مجاهل أفريقيا سائحا أجنيا وربطه لياكله ، فمرت فوقهما طائرة محلقة فى السماء فقال الأسير لصائده وهو يحسبه جاهلا متطيرا : انظر الى السماء تجد روحا هائلة حضرت لانقاذى . فأجابه همجى سائحا انها طيرة تجارية ذات أربعة محركات وسرعتها مائة كيلومتر فى الساعة ، وانقض على الأسير وقتله ثم أكله . ولا عجب فى ذلك فهذا شأن كل من ترقى وجدانه وبقيت أنانيته همجية لم تهذب .

إن التضامن الدولى كان بطيئا فلم يخط فى سبيل الإنسانية خطوات مشهودة الى الآن ، وكان أساس حركته أنانية متحفزة عرفت كيف تستخدم المواهب الفردية وتستثمر المبادئ وصور العواطف لا سيما الدينية منها والخيرية ، وتسخر العقول والأقلام والأفواه فى تذليل العقبات للحصول على كل ما يقع تحت أيديها . وهذا يتطور على خديعة كبيرة لمن جهل النفس الاجتماعية تحار الشعوب فى فهمها . فكم ندهش إن سمعنا سياسيا ينطق بلسان دولته فيقول مالا يعمل ويعمل مالا يقول ، مع اننا واثقون من شرف حياته وسمو عقله ونبل وجدانه الشخصى . ونرجع الى مقارنة أنواع الدعايات السياسية المختلفة الى تفسير متناقضاتها وهى فى تناول الجميع ، نجد الدليل على صحة ذلك واضحا . لقد تهذبت عقول الدول ولكن وجدانها بقى على حاله الطبيعية غرائز وأنانية .

فكل أمة إنما تنقف إزاء هذا النوع من التضامن الدولى موقف الدفاع عن بقائها . وتوجد بين الدول حالة استعداد وهجوم تظهر من حين لآخر فى شكل دبلوماسى أو حربى . ولا وجود حتى الآن للشرطى أو القاضى لحماية العلاقات والفصل فى المذزعات ، كما أن الهيئات الدولية التى وجدت لتهذيب الأناثية الدولية لم تنجح فى عملها حتى اليوم .

كذلك يمكننا أن نتفهم حقيقة ما يشعر به فرد يواصل حبه الشخصى لأصدقاء من رعايا دولة معادية أو محاربة لبلاده ، وأن نتفهم كيف تزداد هذه الحجة تأكدا ومتانة بعوامل الشفقة

لوجود خطر محقق بالأشخاص . وهذا الوجدان وهو من أرق مظاهر التربية الاجتماعية ، إنما يظهر الشخصيتين الفردية والعامة وجها لوجه كل يعمل في حدود واجباته ، فكأنما الحرب من جهة الأفراد محصورة بين الجند من أبناء البلدين دون سواهم .

ولما كان التضامن الإنساني بين الدول لا يزال في أحط المراتب ، كانت الحرب الحالية أحد أعراضه ، وهذه الحرب بلغت الآماد قسوة وشدة بنسبة الرقى الفكرى والمادى ، فأصبحت كارثة عالمية يحتم كابوسها على جميع الدول والأفراد ، تلتهم نيرانها بعض الدول وتنذر البعض الآخر بالقضاء . وعم الشعور بالدفاع عن البقاء وأصبح هذا الشعور محور التفكير والنشاط فظهر للجماعات والأمم صفات ومميزات كبنية ، وحدث تبديل وتغيير في تقدير الأمور وقيم الأشياء ، وتنوعت المصادر والموارد ، وظهر حكم الإسعافات وانخفضت مرتبة الحاجات النسبية لتحل محلها حاجات قاهرة ، وهيات لمادة أو فكر أن يعمل خارج هذا التعديل المباغت ، فكأنما وجدت حركة بناء بسبب الحرب لتشييد نظام اجتماعى مؤقت على أسس جديدة غير أن الناس لا يدركون درجة هذا التغيير لظهور انفعالم المستر واستغالم عنه .

هذه الحالة المباغتة أثرت في الزارع والتاجر والصانع والمالى وغيرهم تأثيرا عميقا سيزداد قوة كلما طالت مدة الحرب أو اشتدت وطأتها . وهى محنة تؤثر في الهيئات والطبقات ، فهذه الهيئات والطبقات تخضع لتيارات مختلفة يرد أكثرها منظمًا مرتبًا من الروح العام ويدعو الى ضم الصفوف والدفاع عن الدولة ؛ كذلك ترد لها تيارات أخرى ضعيفة متخاذلة مسترة ، منها ما هو اقتصادى مثلاً ينشأ عن جهل بحقوق الأمة أو جمود هذه الحقوق .

وإذا كانت النفوس جنودا مجندة في سبيل التضامن العام ، وكان هناك فريق أناى نأثر عليه ، فإن بعض النفوس تنمى أنايتها وتكاد تخرج على مبادئ الطبيعة البشرية ، فيضجى كل فرد منها نفسه وماله طوعا في سبيل التضامن . كما أن السواد الأعظم من النفوس في الأمم الراقية يدرك أن المحنة عامة فيتنازل مختارا عن جزء من الحقوق التى كان يتمتع بها في الحياة العادية ويهبط قليلا عن مستوى معيشته المألوفة بقدر ما تتطلبه ظروف الحالة المباغتة التى يزداد فيها عدد الفقراء والعاطلين والمعوزين بسبب اختلال ميزان الانتاج والتوزيع .

وفى المحن العامة يعمل بعض الهيئات والأفراد لأنانيته غير حاسب للحنة وجودا بل لأنه ليسعى للحصول منها على أكبر نصيب من الفائدة فينتفع من جميع ما يطرأ على الحياة العامة فى جميع نواحيها ، اقتصادية كانت أو مالية أو سياسية أو غيرها ، ومما يطرأ على حياة الهيئات والطبقات والأفراد من التغيير الاضطرابى فى الميول والمبادئ والغايات .

مثل هذا البعض كمثل لص يدخل ساحة القتال خلصة بعد انقضاء المعركة ليسرق متاع الجرحى والقتلى . وقد فطنت الحكومات لهذا النوع من الإجرام وسنت القوانين المختلفة (ردع أولئك المجرمين ؛ وبينها القوانين التى تعيد وتحدد الأرباح الناشئة فى مثل هذه الظروف .

إن الحكومة هي المشرفة على النصح العام وهي العليمة باستعداد الأمة النفسى والمادى، الملمة بمحاجاته وموارده ومضامحه وشؤونه الداخلية وعلاقاته الخارجية . فلكل حكومة سياسة أعتتها للطوارئ والأزمات عند حدوثها وبعد مرورها، فضلا عن سياستها لعادية المستقرة، بل إن الأولى ليست سوى جزء مكل للثانية ومتفرع عنها . وأساسهما وغايتهما المحافظة على الصالح العام .

إن السياسة العامة تقضى عند وقوف الأمة موقف الدفاع عن بقائها لأسباب داخلية أو خارجية بوجود أنواع جديدة من النشاط والتفكير والشعور ، و باستتار أقوى الحيوية فى الأمة الظاهرة منها والكامنة والمعطلة الى أقصى حدود الانتاج فى أقصر مدة . وكأنما الأمة وسائر طبقاتها التى هى مصدر السياسة العامة تصبح خادمة أو أسيرة لما فتعل قواين وتظهر أخرى فتبدل وتغير فى النظم وتؤثر فى الحريات وتطالب الأفراد بالبحث عن التوافق بين مصالحهم الخاصة وبين هذه الحالة الاجتماعية الطارئة . ويقف منفذ هذه السياسة وقفة الجراح أثناء قيامه بعملية جراحية هادئا مطمئنا كأنما يعيث بحسم المريض ويستئين بعواطفه وصواطف أهله أو أقاربه، أو كأنه تجرد من الوجدان . وهيات للجراح أن يحسن عمله إن نقصته هذه الصفات .

على أن الجراح بعد فراغه من العملية الناجحة يقبل على المريض وأهله راضيا لقيامه بواجبه حاملا لم الأمل والرجاء . وكثيرا ما يشرح لهم بعض ما اتخذ من إجراءات سابقة للعملية ولاحقه أو ملازمة لها . ولا شك أن منفذ السياسة العامة مقيد بالمحافظة على التوازن العام بين الأفراد والطبقات فضلا عن الكفاح فى سبيل الدفاع عن البقاء محافظة الطبيب على الأنسجة والدورة الدموية والتنفس وغير ذلك .

شعور الأمة بأنها أصبحت فى الظروف الاستثنائية خادمة للقانون أكثر مما يكون القانون خادما لها ، وعناية السياسة حصرت فى دائرة واحدة ، وتغير جوهرى غير مألوف للنفس أصاب مصالح بعض الأفراد وثر فى الحريات ، كل هذه الأمور تجد من بعض النفوس نفورا ومعارضة ؛ ولكن السياسة علية بها سلفا وقد أصدت لتصرفها ودفع خطرها خطة باعتبارها عملا من عوامل الانحلال لا يستهان به فى مثل هذه الظروف . أما اذ كانت المعارضة غير خطيرة فإن السياسة العامة تتجاوز عنها ولو اشتدت على آلام . ولا غرابة فى هذا الموقف لأن النداء العام هو نداء بالتضحية الفردية فى سبيل الجماعة . وليس هناك تضحية أكبر من أن ترسل الأم أولادها الى ساحة القتال أو أن تهجر أسر من جهات الى أخرى فى ظروف قاهرة أو أن يخضع اناس لتحديد كميات غذائهم أو ملابسهم أو لإيواء أجنبى داخل منازلهم أو لأن تنزع بعض أملاكهم .

هيئات للسياسة العامة ان تحافظ للأفراد والجماعات على توارن منظم متواصل الحفقات متفرع في جميع وجوه النشاط متناول لجميع الطبقات والأقاليم . لأنها أدوار انتقالات مباحثة لا تحلو من آلام يحتم فيها على الأفراد والطبقات أن يتضامنوا على تخفيف شدتها .

هذا النوع من التضامن الأهلى مقياس نهىدى به الى معرفة الشخصية القومية ومبلغ إدراكها لحقائق الأمور . يجب أن يوجد هذا التضامن بين الغنى والفقير، والخدم والمخدوم، وصاحب المصنع والعامل، والمدنى والعمروى وغيرهم . يجب على كل واحد أن يشعر بقدر من التضحية الفردية في سبيل التضحية للعامة فلا يسرع صاحب المصنع أن يعاد بعض عماله مثلا ليوازن بين النفقات والأرباح، ولا يجوز لغنى أن يكتفى بتقديم المعونة التي تعود تقديمها الى الفقراء ليحافظ على مظاهر حياته المألوفة . ولا يجوز لتاجر أن يسرع الى رفع الأسعار لأن تاجرا آخر اضطر الى ذلك لظروف خاصة به . كما لا يجوز لقرية أن تستغل اللاجئين اليها . إن انعدام هذا التضامن دليل على ضعف الروح العام ، وشرة يصيب الفقراء أكثر من غيرهم ، والفقراء آفة الآفات . وكل غافل عن هذه الحقيقة هو أداة انحلال القومية .

وإذا جاز لبعضهم أن يحمل الحكومات والأنظمة الخيرية القائمة مسئولية الفقر والفقراء وحل مسائهم أسوة بما تفعله الأمم الرافية في الظروف العادية ، فقد وجب عليه أن يذكر أن الشعوب التي تمسكت بهذا المبدأ في ظل الأنظمة الحديثة هي خير الشعوب إدراكا لمناعب الحكومات في التوازل والأزمات الاجتماعية الشديدة والحاجة الجمعيات الخيرية والأفراد الى المعونة . ولهذا كانت أسرع من هذه الأنظمة الرسمية وشبه الرسمية الى ترتيب الأمور وتخفيف الآلام ومعالجتها علاجا شافيا . بل إن عواطف بعض هذه الشعوب تجلى بحكم هذا الإدراك المنظم في تقديم المعونة خارج حدود بلادها الى شعوب باغتها المحن . وقد كان بعض الملوك والأمراء بصفاتهم الشخصية في مقدمة الناعمين بث هذه الروح الأهلية في الحرب والسلام وتنشيطها وتوجيهها السريع نحو القيام بهذه الواجبات . وخير مثل تسمو اليه النفوس في ذلك هو جلالة ميككا المحبوب .

لقد اضطر بعض الحكومات في الحرب الأعظمى الى اخلاء المستشفيات لإيواء الجرحى الوافدين من ساحات القتال . أو إلى غل يدها عن المعونة المقررة للآوى وملاجئ العجزة والأحداث ، مكتفية بتضميد جروح من خرجوا الى القتال في سبيل الجماعة . فن الذى يست هذا العجز الاضطرارى ويكمل هذا النقص الذى يصير ملموسا محسوسا في كل بلد وإقليم كلما طالت مدة الأزمة ؟ لا شك أن هذا واجب قويم مقدس ، فان قصر الشعب في أدائه كان من حيث التضامن في حكم الناصر ، وللسياسة أن تتدخل في الأمر بما لديها من قوة وساطان .

حسين رمزى